ايرلندا - القطار المتجه من دبلن الى وست بوينت

آب / أغسطس 2000

ناولني الساندوتش المغلف بالسليفون . ظننت انه يعرض علي مشاركته الاكل . فقلت له فورا : شكرا جزيلا . لااشعر بالجوع . قال : افتحه . ابتسمت معتذرا ، ثم خلعت عن الساندوتش غلافه الشفاف ، فشكرني .

قال : اصابعي بلا فائدة كما ترى . وأراني اصابعه المعوجة الملتوية ، مثل طفل يتباهى بما لديه ، اراني يده الثانية .

قال : اصبعي مقطوعة اصبت بجرح . تسمّم الاصبع فبتروها .

اشار برأسه الى المرأة الغافية بجانبه ، قال : كانت بجانبي .

قلت لفريق الجراحة لا اسمح لكم باجراء العملية ان لم تبق بجانبي . اعترضوا كثيرا ، الا انني اصررت فرضخوا في النهاية . ألبسوها رداءا معقما ، ومكثت قريبة مني .

ضحك فرحا بانتصاره على الاطباء ، وادارة المستشفى ، ومرض التسمم .

قال بصوته العالي : ان شعاري في الحياة ، كما ترى ، هو

سواء كنت على حق ام على باطل ، اذا ما اصررت على ما تريده ستناله في النهاية . ان مصطلح قبول الامر الواقع غير موجود في معجمي اللغوي .

من بين اسنانه الداكنة اللون المتباعدة ، اطلق ضحكة اعلى : «في الحقيقة . هذا ما نؤمن به جميعا» .

تساءلت : جميعا؟ قال : نعم ، في ايرلندا .

كنت اشغر المقعد المجاور للنافذة ، في اتجاه سير القطار . هذه السفرة حجزتها عن طريق شركة «يونيفرس» التي تتعامل معها زوجتي ، وتصر على انها الافضل ، سواء داخل ام خارج بريطانيا .

كان الايرلندي وزوجته (افترضت انها زوجته ، ما دام قد اصر على تعذيبها بمنظر البتر) جالسين مقابلي . كلاهما في الستين . ارتدت المرأة قميصا موردا بالاحمر والازرق على ارضية بيضاء . تحته فانيلة مخططة بالعرض . كانت غافية ، لذلك اخترت النظر باتجاهها ، كلما رفعت رأسي عن كتابي بين الحين والآخر . تحاشيا لتبادل النظر مع الغرباء . لاحظت خلطة الوان شعرها المكونة من البني والرمادي والاشقر ، لان زوجتي تحمل كوكتيلا مماثلا على رأسها .

كانت متشبثة بحقيبتها اليدوية السوداء ، موضوعة في

حضنها على جريدة «الديلي اكسبريس» . بين قدميها على الارض حقيبة سفر . هدية مجانية من مصرف «باركليز» كتب عليها بخط واضح : «باركليز : المصرف الذي يصغي لك» .

قال : من اي بلد انت؟

صفعني السؤال في وجهي . وقع المحظور . بلعت ريقي بصعوبة ، وتمهلت في الاجابة . اولا لانني ضجر الى حد الموت من سؤال مكرر يرميه علي الغرباء ، بحرية لا مثيل لها ، اينما مضيت . وثانيا لانني لم اسافر وحيدا ، لاجدني اتجاذب اطراف الحديث مع شخص يلعلع صوته في القطار ، ضاحكا فخورا باصبعه المبتورة ، جاذبا انظار الناس الينا . وثالثا لانني افضل الصمت وتأمل ما يدور حولي اثناء عطلتي .

العراق . . . واضفت متداركا . . . الا انني مقيم في لندن .

أضفت الشطر الثاني من الجملة ، لاتفادى التعليقات والاستفهامات المتوقعة بعد السؤال الاستدراجي الاول . حوار لا جديد فيه ، رتيب رتابة ايام مريض في المستشفى . يمضي الحوار ، عادة ، على هذه الوتيرة : «من ايران؟ كلا . العراق . العراق؟ نعم . البلد الذي ينتهي اسمه بالقاف لا بالنون ، العراق بلد مجاور لايران . آه . . . تعني . . . بلد

الخميني! كلا انه بلد لا يملكه احد حسب علمي ورئيسه يدعى . . . قف . . . قف لا تضف شيئا العراق هو بلد صدام . . . اليس كذلك؟

الا ان الايرلندي المسن لم يقل ذلك ، بل توقف عن مضغ لقمته .

قال بصوت حزين : انا متأسف جدا من اجل الشعب العراقي . انه يمر بفترة صعبة حقا . مثلنا في ايرلندا .

ذهلت . من هو الذي قال : «لم يعد هناك ما يثير الدهشة؟ «واختار الموت!

ها أنا التقي برجل يلخص كل ما اريد قوله بجملتين ، ثم والاكثر غرابة من ذلك انه يعرف . . . يعرف . ولن اضطر لتوضيح شيء له .

مد يده ذات الاصبع المبتورة لمصافحتي قائلا : اسمي براين . واومأ باتجاه زوجته : وماري .

قال لي براين متعجبا : ألم تزر سان باتريك؟ انت في ايرلندا منذ ايام ، ولم تزر سان باتريك!

قلت معتذرا : انا لا اؤمن بزيارة الاولياء والقديسين .

قال ضاحكا بصوته العالي الودود : ستؤمن . . . ستؤمن . . .

كلنا بدأنا بهذه الطريقة في سن الشباب . ولكن انتظر الى ان تصبح في عمري ، وانت تواصل العيش مع أمرأة مثل . . . ونظر بتآمر الى زوجته . . . وستؤمن ، واضاف بصوت جاد ، بعد ان توقف هنيهة ليلتقط انفاسه . . . ثم ان سان باتريك ليس قديسا عاديا . . . انه اكثر من قديس . الم تلاحظ ان ايرلندا كلها خالية من الأفاعى؟

قلت معتذرا ثانية : ان برنامج رحلتي المرتب من قبل «يونيفرس» لا يتضمن زيارة سان باتريك .

قال غاضبا : كيف تسمح لشركة حقيرة ان تمنعك من زيارة سان باتريك؟ universe Fuck

●●●

في الحانة المجاورة للمحطة أصر براين وماري على دعوتي لشرب كأس واحد من البيرة . قالا كأس واحد لا غير ، لنغسل عن ارواحنا تعب السفر . قال براين : هذه حانة ممتازة لا يرتادها غير اهل المنطقة . تعال ، يجب ان تجرب طعم بيرة «الجنيس» الحقيقية في ايرلندا . ستكتشف بان ما يبيعونه لكم في لندن ماء اسود .

بقينا في الحانة ساعات زادت على ساعات رحلة القطار . وبعد الكأس الثالث من البيرة ، توقفنا عن العد . لا اتذكر

الكثير مما قلناه ، الا انني اتذكر صوت ماري الجميل ، وهي واقفة وسط الحانة تغني ونحن نغني معها .

لحظة الوداع ، امام باب الحانة ، رفع براين كأسه عاليا في الهواء ، استجمع قواه وصرخ بصوت عال : العراق . رفعت كأسي التي بدت ثقيلة كصخرة ، وحاولت تقليد صرخته : ايرلندا .

واحتضنتهما باكيا .

من بين دموعي المنهمرة ، وعدتهما ان اغير برنامج رحلتي وازور ضريح القديس سان باتريك .

زيارة ضريح سان باتريك

على الارض المنبسطة القريبة من سفح الجبل ، احتشد مئات الناس . من كل الاعمار . اطفال وشباب وشيوخ بصحبة عصي للمشي . وصلوا الى المكان بسياراتهم الخاصة والحافلات العامة ، وحافلات شركات السياحة المعلبة . الجو مشرق وحرارة الشمس تتخلل الاجساد المتشوقة لها .

سألني شيخ وقف بجانبي ، وقد لاحظ حيرتي وترددي : هل هذا حجك الاول؟

قلت : نعم .

قال : من الافضل ان تستأجر عصا من ذلك الحانوت ، وتأخذ قنينة ماء معك . ان طريق الصعود الى القديس صعب .

رفعت رأسي عاليا ، فلم ار قمة الجبل ، الا انني لاحظت اشكالا صغيرة مثل النمل ، تزحف صعودا ، فغاص قلبي وجعا ، وادركت جسامة الخطأ الذي ارتكبته بالمجيء الى هنا . ما معنى هذه الزيارة البائخة ، والسير مثل خروف بين قطيع؟ الم يكن من الاجدى التمشي في انحاء المدينة ، ثم الجلوس في حانة ، او مقهى ، وقراءة الصحيفة اليومية ، وكتابة بطاقة بريدية الى زوجتي وولدي؟

شعرت بتورطي في هذه الزيارة . الا انني تذكرت وعدي لبراين وماري ، فتنهدت بحسرة ، وسرت مع السائرين .

وانا اخطو خطواتي الاولى على المرتفع ، اقنعت نفسي بان هذا سيكون اول ولي من اولياء الله الصالحين ، ازوره برغبتي . أو على الاقل برغبتي في تنفيذ رغبة صديق . الاولياء الآخرين زرتهم كطقس موسمي ، او يومي عادي ، لا جدال فيه مع عائلتي اثناء مرحلتي الطفولة والمراهقة ، وهجرته كليا ايام الشباب .

أئمة الكاظم وكربلاء والنجف وعبد القادر الكيلاني . كم من الدعوات اطلقتها امي ، وهي متشبثة بقوة وعزيمة بشبابيك اضرحتهم! كانت تدعو للعراق بالخير ولي بالهداية ، وترك السياسة والاستقرار ، ولاختي بالصحة والزواج من ابن الحلال باسرع وقت ممكن . وكانت نتيجة الدعاء عكسية تماما . فها انا في المنفى منذ عشرين عاما ، واختي عانس مزمنة في بغداد ولحسن الحظ لم تعش الوالدة طويلا ، لترى مفعول دعائها على العراق .

سررت لانني ارتديت حذاء رياضيا جيدا . «يحتضن القدم ومضاد للتزحلق» . هل هذه هي كلمات ابني الاصغر ، يستخدمها للدفاع عن ارتدائه الحذاء الرياضي دائما ، ام انها كلمات سمعتها في اعلان تلفزيزني؟ لا ادري .

لاحظت ان الشيخ السائر ، او الاصح الزاحف ببطء ورائي كان يرتدي حذاءا غريب الشكل . لم ار له مثيلا من قبل . كأنه مفصل خصيصا له . ابتسم الشيخ في وجهي .

قال : ارى انك لم تسمع نصيحتي . لعلك محق . الشباب بغنى عن الاتكاء على العكازات .

قررت السير بسرعة اكبر قليلا ، لابتعد عنه . لأتفادى الدخول في متاهة القيل والقال . كان من الصعب جدا تنفيد القرار ، والابتعاد لتغير طبيعة الارض من كونها مبلطة

بالاسفلت القديم ، الى ارض صخرية مغطاة بتربة مغطاة بدورها بحصى ناعمة . صارت كل خطوة غير محسوبة ، ستؤدي لا محالة الى التزحلق والانكفاء على الوجه .

بدأنا بالتسلق من مستوى سطح البحر . ونحن على ارتفاع معقول ، التفت ، فرأيت بدء تشكل منظر طبيعي جميل . ارض خضراء ممتدة بسخاء ، حتى تكاد تلامس البحر . سمعت صوت خرير مياه ونباح كلاب من بعيد . قرأت في دليل المنطقة ان ارتفاع الجبل يبلغ 800 مترا . وكانت الاحجار ، مع الارتفاع التدريجي تزداد حجما . تشبه الحصى في مظهرها ، الا انها حجرية متباينة الاشكال والحجوم . الطبقة الترابية خفيفة مثل الزغب الشعري النامي على وجه مراهق . للجبل لحية مراهق . طبقة غبار مرشوشة بتعمد ، لتموه وجود الصخور الوعرة تحتها . بعيدا ، على السفح رأيت قطيعا من الخراف ، واعلى منهم بين الصخور الناتئة كان هناك قطيع ماعز . رائحة روث وبعرور .

فكرت : هذا ولي من اولياء الله الصالحين ، يحب السكن في احضان الطبيعة ، ويتآلف معها . انه إمام اخضر . رغما عني ، ضحكت بصوت عال . الا انني سرعان ما بلعت الضحكة . نظرت حولي متوقعا سماع صوت امي ، وهي تنهرني قائلة : لا تضحك عندما نزور الائمة . . . حرام .

وقفت مع الواقفين . امام تمثال صغير لامرأة تحتضن طفلا . الأم ماري ، والسيد المسيح . عند قدميها حوض ماء صغير .

قال الشيخ الذي ظهر فجأة من الغياب ليقف بجانبي : ضع يدك في الحوض ، وامسح جبينك بالماء .

نفذت فورا ما ذكره الشيخ ، وانا العن براين الذي ورطني هذه الورطة ، كما لعنت جبني الذي يجعلني اطيع الكبار في السن ، واحترمهم ، حتى ان كانوا مصابين بالخرّف . لماذا لم اصرخ في وجهه رافضا؟ انصعت لتعليماته . هذه آخر مرة اسمع فيها كلام أحد . ابني الكبير ما كان سينفذ شيئا بدون ان يسأل عشرات الاسئلة . لماذا وكيف وهل بامكانك اثبات صحة ما تقول . . .؟ وانا . . . اطيع شيخا لا اعرفه . اللعنة على براين وماري وسان باتر . . .

وتزحلقت . سقطت على وجهي . شعرت بسائل حار يسيل من انفي ، وحرقة في عيني ، وخدوش في ذراعي وساقي . ساعدني الشيخ على النهوض . ناولني منديلا قطنيا ابيض تفوح منه رائحة القرنفل والبخور ، وقال بهدوء : ركز على خطواتك . ما زلنا في بداية الطريق .

نظرت الى ساعتي اليدوية . انها الثانية عشرة وعشر دقائق . باق لنا تسلق ساعتين . ركزت على خطواتي . تحاشيت

الحجارة الصغيرة ، ومشيت على الحجارة الاكبر . الجسد منحن بحثا عن مركز الجاذبية . عضلات الساق غير المتعودة على التسلق البطيء اشتكت من الالم ، بالاضافة الى وجع الخدوش .

مرت بجانبي شابة ، تجر وراءها ثلاثة اطفال مربوطين بحزام جلدي ، تفاديا للسقوط .

تعالت ضحكاتهم عاليا خلقت لهم جوا مرحا . اقنعتهم بانهم يمارسون لعبة مسلية ذات قواعد محددة . بحماس وقف الاطفال امام نصب حجري متوسط الحجم للمسيح . يلتف حوله سياج معدني منخفض .

قالت الشابة : انها المرحلة الثانية من الحج . دوروا حول النصب سبع مرات ، وردّدوا : تقدس الام سبع مرات .

طاف الاطفال حول المسيح سبع مرات وهم يحسبون بصوت عال : واحدة اثنتان ثلاث اربع خمس ست سبع .

قالت لهم : وسبع مرات اخرى ، وانتم تقولون ليتقدس المسيح .

احتضنتهم الواحد تلو الاخر في النهاية وقبلتهم .

راقبت مرح الاطفال وفرحتهم بالطواف ، وانا جالس على صخرة قريبة .

اين قمة الجبل؟ ما زلنا نصعد اعلى فاعلى ، وكأننا على تل

عال . ابتعدت الشابة والاطفال ولم اعد اميز انحناءة كتفيّ الشيخ الذي سبقني . فجأة انكشف امامي منظر مختلف . ارض منبسطة . قافلة الحجاج الطويلة ملتوية امامي . انا واقف على جبل ، وامتداد القافلة البعيدة على جبل آخر . يربط بيني وبين الجبل الثاني ، ممشى صخري ، يساعد الحاج على الراحة لوهلة قبل ارتفاعه الى الجزء الثاني .

الجبل الثاني كان يشبه الرسم الطفولي للجبال . مثل الرقم ثمانية . صخور ضخمة ناتئة .

ارض الممر ما بين الجبلين كانت ترابية حمراء ، مبللة ، تزيد من احتمال فقدان التوازن . شعرت بالعطش ولسعة الشمس الحارة على وجهي . وعلى حين غرة غزت الجو اسراب حشرات هائمة بشكل غيمة . ارتفعت ايدي الحجاج في الهواء لتبعده عن الوجوه والاذرع المكشوفة والسيقان لمرتدي الشورتات . لحسن الحظ ، ما زلت احمل في داخلي رهبة المجيء الى الاماكن المقدسة ، واعتبر الشورت لا يليق بالائمة ، حتى اذا كانوا راقدين على قمة جبل منذ مئات السنين .

فكرت : لو شاهدتني امي مراعيا الاصول والتقاليد التي طالما رفضت مسايرتها لافتخرت بي .

تزحلقت عجوز صاعدة امامي ، وبرد فعل سريع اسندت

ظهرها بيدي . اجلستها على صخرة قريبة .

قالت ممازحة : لا ادري لم استعجالي . انا متأكدة من ان سان باتريك سينتظرني . سأرتاح قليلا ، واكمل الصعود .

حافات الصخور ناتئة حادة جارحة ، بعضها مغروز في جلد الجبل مثل الشوك ، وبعضها الآخر يغطيه مثل الصدف او القشرة ، تتناثر حالما تلمسها اليد . بات الصعود في هذه المرحلة على اربع ، ولا وجود لحافة طريق او حاجز او صخور جانبية يستند اليها المتسلق .

صعدت من بين الصاعدين . الرؤوس منحنية . الايدي تتشبث بأي شيء بارز في الارض . الاقدام تبحث عن فجوات للاستقرار . الاجساد مجبرة على الانحناء ، حرصا على التوازن . الا انها تبدو للناظر ساجدة خشوعا . الوجوه محمرة . الاجساد المتعبة تنز عرقا . القمصان والفانيلات مبللة تماما . الانفاس لاهثة . هناك احساس عارم بوحدة الفرد مع الكل . الكل مع الجبل . الجبل مع الطبيعة . في خضم هذا التوحد الكلي ما هو موقع القديس؟

لابد اننا على مقربة من القمة . من الضريح / المزار . وجوه النازلين متألقة فرحا . متوهجة بالنور . يحيوننا بحماس ، ويشجعوننا على مواصلة الصعود ، وهم يلاحظون نية البعض

على التخلي لشدة الانهاك .

«لم يبق غير مسافة قصيرة» .

«استمروا . استمروا . لا تتوقفوا انها تجربة هائلة» .

آلام في مفاصلي وعضلاتي ، والكدمات ، ووجهي بدأ يتورم من هجوم الحشرات . فجأة ، احسست ببرد شديد . تيار هوائي يدفعني . هل انخفضت درجة الحرارة وازدادت سرعة الهواء ، ام انني على وشك الاصابة بالبرد؟ نحن على مبعدة امتار قليلة فقط . الكل يسرع . اللهفة والشوق يزيدان من سرعة التسلق . كبار السن ، استعادوا حيويتهم ، الصغار موعودون باداء لعبة جديدة . يا سان باتريك . . . يا سان باتريك . . . جئنا نزورك . . .

«بضعة خطوات ، ونصل «تقول امي وهي ممسكة بقوة بيدي ، لأواصل السير معها ، لئلا اضيع . اقول متضرعا : ماما . . . ماما . . . انا تعبان . . . تجيبني بصبر : «نزور الامام اولا ، ثم نرتاح . سترى بنفسك كيف نرتاح» .

حول المرقد مع الحشود ندور . امواج من اجساد بشرية تلتف حول ضريح مسيج . في قلب دائرة بشرية . تدفعني سيقان الحشد . اسمع صوت الدليل وهو يسير امامنا قارئا بصوت هامس قوي : «السلام عليكم يا اصفياء الله واوداءه . السلام عليكم يا انصار ابي عبد الله . بأبي أنتم وامي . طبتم وطابت

الارض التي فيها دفنتم ، وفزتم فوزا عظيما . فيا ليتني كنت معكم فافوز معكم» .

شعرت بالارهاق . خذلني جسدي الخمسيني . كيف تذكرت كلمات الدعاء السحيق ، انا الذي لا يحفظ جملة او رقما او اسما؟ الضعف الجسدي كان يحثني على النزول . التخلي . فرفعتني قوة دفع الاجساد الصاعدة معها . استغثت بها . ارخيت عناني معها . أعلى . . . أعلى . النسيم البارد جفف العرق . انتعشت الاسارير . سكنت فورة السؤال . الاعتراض . أذعنت . تدريجيا ، غادرني ثقل الروح . خف الجسد صعودا الى برد الظلال . رفعت رأسي نحو الاعلى . اطلّ علي من حافة فسحة القمة وجه الشيخ الجليل ، عيناه الودوتان ، شعره الفضي . تفوح منه رائحة البخور .

مبتسما ، مشجعا ، كان ينظر الي ملء عينيه . رأيت في صفاء عينيه انعكاس صورته المرسومة في عيني . تعثرت فمدّ يده جاذبا اياي اليه .